

أدب الفكاهة عند الجاحظ -رسالة التريبع والتدوير- أنموذج.
Humor literature at Al-Jahiz-Squaring and spinning- letter
as a model.

* أ. كركب محمد

Kerkeb mohammed

مخبر الدراسات النحوية واللغوية بين التراث والحداثة، جامعة ابن خلدون - تيارت-الجزائر

University of Iben khaldoun TIARET -Algeria

mohamedlaid15@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/11/07	تاريخ القبول: 2020/06/02	تاريخ الإرسال: 2020/04/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تتناول هذه الورقة البحثية قامة من قامات الأدب العربي، وموسوعة قلما وُجد لها نظير في حاضرنا، ألا وهو الجاحظ من خلال أدب الفكاهة الذي يعتبر أول من أرسى قواعده، وأخرجـه إلى العالمية، وذلك من خلال رسالته المشهورة (رسالة التريبع والتدوير) التي عالج فيها الجاحظ بعض الآفات الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع الإسلامي حينذاك، كالأنانية وحب الذات، وادعاء أشياء ليست من صفات ذلك الشخص، كادعاء سعة العلم، والإحاطة الواسعة به، وكان بطل هذه الرسالة شخصية (أحمد بن عبد الوهاب) وقد رسم لها الجاحظ صورة كاريكاتورية رائعة، يعجز فنانو الريشة حاضرا عن رسمها، موجهها سهام نقده لمهجوّه، دون سبّ أو شتم أو قدح، وهذا ما يُفتقد اليوم في بعض الأعمال الأدبية، إن الجاحظ من خلال هذه الرسالة الساخرة، أرسى قواعد فن الفكاهة الهادفة، وتضع كل شيء في نصابه، بأدب راق هادف يعالج آفات اجتماعية ويحاربها بطرق فنية.

الكلمات المفتاحية: فكاهة، الجاحظ، أحمد بن عبد الوهاب، أفكار، أسلوب.

Abstract :

This paper deals with a pillar of the pillars of the Arab literature ‘and an encyclopedia that is rarely found in our present time ‘namely ‘Al Jahiz through the literature of humor ‘which is considered the first to establish its rules and took it out to the world. Through his famous letter (the message of squaring and rotation) in which he addressed some social issues that spread in the Islamic society at that time ‘such as selfishness and self-love ‘and the claim of things that are not characteristic of that person ‘such as claiming

* كركب محمد mohamedlaid15@gmail.com

the breadth of knowledge. The hero of this letter is the character (Ahmed bin Abdul Wahab) for whom Al Jahiz has painted a wonderful caricature present artists are unable to draw 'directing arrows of his criticism at his satire without insulting 'and this is missing today in some literary works. Al Jahiz through this satirical message 'laid down the rules of the art of purposeful humor 'and puts everything in the right path with a purposeful politeness that addresses social issues and fights them in artistic ways.

Keywords: : Humor 'Al-Jahiz 'Ahmed bin Abdul-Wahab 'ideas 'style



مقدمة

إنّ أدبنا العربي كما هو معلوم حافل بشتى صنوف وفنون الأدب، ومن هذه الفنون أدب الفكاهة الذي يدخل المسرة والفرح إلى القلوب، لأنها تكون في كثير من الأحيان في حاجة ماسة إلى ذلك، سواء بعد إجهاد أو ملل أو سامة. ومن هذا المنطلق ارتأيت أن أتطرق لهذا الموضوع من نافذة ما كتبه الجاحظ في هذا الميدان لأن له الفضل واليد الطولى على الأدب العربي عموماً، والفكاهة خصوصاً، ولأنه من الأوائل الذين طرّقوا هذا الباب وأبدعوا فيه ولم يتناول الفكاهة من أجل الإضحاك والإمتاع فحسب، بل لغرض محاربة بعض الآفات والصفات الذميمة في المجتمع ومنها البخل على سبيل المثال لا الحصر. ومن الأهداف التي كنت أصبو إلى تحقيقها من خلال هذا العمل المتواضع هو التعريف بأدب الفكاهة عند الجاحظ والغايات التي يهدف إليها الجاحظ من خلال تناوله لهذا الفن من الأدب، حتى يدرك القارئ جهد هذا الرجل في خدمة الأدب العربي وتلويح وتنويع فنونه. والسبب على خطاه من أجل تقلد ما يفيد القارئ من جهة، والمجتمع من جهة أخرى، قصد محاربة البخل والشح، والاحتكار وما إلى ذلك من صفات ذميمة تفتشت في مجتمعاتنا حاضراً. كما ينبغي للكُتّاب في حاضرنا محاكاته، وكتابة ما يُقبَلُ على قراءته، ويعود بالفائدة على المجتمع.

وقد حاولت من خلال هذا البحث أن أجيب على جملة من التساؤلات والإشكالات التي شغلت الباحثين في مجال فن الفكاهة، وغاياتها وآلياتها الموصلة لهذه الغايات من أجل أدب هادف وبناء ومن أهمها:
-تعريف الفكاهة وتاريخها.

-أعلام الفكاهة باختصار من بداية العصر الإسلامي إلى عصر العباسي وبالتحديد الفترة التي عاشها الجاحظ.

-أهمية الفكاهة كفن أدبي قائم بذاته له خصوصيات وطرائق كتابة خاصة به.

أولاً: المدخل:

إن تاريخ الفكاهة تاريخ طويل فهي لا تعود للعصر العباسي أو الأموي بل امتدت جذورها إلى العصر الجاهلي، لكنها لم تعد فنا قائما بذاته إلا في العصر العباسي نتيجة لتطور الكتابة في مختلف الفنون الأدبية وتعدد أغراضها لتطور المجتمع من جهة وحركة الترجمة الواسعة التي شملت المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية من جهة أخرى .

فانطلاقها في العصر الجاهلي كانت محتشمة فقد وجدت مادتها في بعض القصائد الجاهلية أذكر على سبيل المثال لا الحصر ما ورد في ديوان امرئ القيس مادة فكاهة:

يفاكهنا سعد ويغدو لجمعنا***** بمثنى الزقاق المترعات وبالجزر¹

لعمري لسعد حيث حلت دياره***** أحب إلينا منك فافرس قمر²

وورد في قصيدة للأعشى مادة ضحك وهي من الأمور التي تتبع الفكاهة

يا عجب الدهر مني سويًا***** كم ضاحك من ذا وساحر

وجاء في المخصص لابن سيده " الفكاهة هي المزاح، والرجل الفكاهة، الطيب المزاح " ولو تمعنا في أساس البلاغة للزمخشري للبحث في مادة (هكم) تطالعنا المعاني التالية تهكم فلان على ما يعنيه : اقتحم علينا أو تهكم علينا أي تعدى:

وتهكم عمرو على جارنا***** وألقى عليه كلكلا

وتهكم به تَهْرأً به، وقال ذلك على سبيل التهكم والسخرية، قال حسان-رضي الله عنه- :

بني أم المؤمنين ألم يرعكم***** وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عامر بأبي براء***** ليخفره وما خطا كعمد³

وأذكر هنا بداية العصر الإسلامي الأول زمن البعثة قصد التأصيل للفكاهة محاولاً إعطائها بعداً تربوياً جدياً عكس ما يعتقد أن الفكاهة للهزل والضحك فقط، وقد أثير عن الرسول صلى الله عليه وسلم مع عثمان رضي الله عنه، أنه دخل على عثمان وهو أرمده فوجده يأكل تمرًا فقال له

أتأكل تمرا وأنت أرمد، فقال عثمان رضي الله عنه: إنما أكل من الجانب الآخر فضحك النبي حتى بدت نواجذه⁴.

وكان الإمام علي رضي الله عنه مشهور بالفكاهة متصفا بالدعابة والنوادر فمِمَّا يُؤَثَّرُ عنه رضي الله عنه " النفس مؤثرة للهوى، آخذة بالهويى جانحة إلى الهوى طالبة للراحة فإن أكرهتها أغضبته وإن أهملتها أرديتها"⁵.

وفي فكاهة محتواها أن يهوديا قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: مالكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلا خمسة عشر سنة حتى تقاتلتهم، فقال علي رضي الله عنه: " وأنتم لم تكذ أقدامكم تحف من البلبل حتى قلتم يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم إلهة"⁶.

وتطور فن الفكاهة في العصرين الأموي والعباسي تطورا ملحوظا إذ اتخذ منحى تصاعديا، ففي العصر الأموي اتخذت دائرتها تتسع، وروادها يزيدون، وصار لها أعلام مشهورون أذكر منهم أشعب الذي سجل له التاريخ فكاهاته ونوادره المختلفة وكان ذا مزاج ظريف عفيف، وقد اشتهر بالطمع زيادة على ما اتصف به من ذكاء وبديهة مسعفة، إضافة إلى عوامل كان لها أثر في بروز هذه الشخصية الفكاهية، كما أذكر أيضا شخصية أخرى وهي " أبو دلامة " الذي برز ونبغ أكثر في عهد بني العباس .

أمَّا في العصر العباسي وبفعل ذلك التمازج الثقافي واختلاط العرب بغيرهم ازدادت الحياة تعقيدا، وازدهرت الحياة الثقافية، وتشعبت فنون الآداب والمعرفة، وكان لذلك أثر بالغ في رصد مظاهر المجتمع ومعالجتها، وكان للفكاهة دور في الحياة، فبرز فيها أعلام زيادة على أبي دلامة الذي عاش أكثر في دولة بني أمية، أذكر منهم أبو العيلاء، وابن الرومي، وأبو نواس هؤلاء ثلاثة شعراء معروفون نبغوا في الشعر وجددوا في أغراضه ومعانيه، وكان للسخرية والتهكم والفكاهة قدر كبير في شعرهم، أذكر على سبيل المثال ابن الرومي الذي عرف عنه أنه كان جيد الشعر، طرق مواضيع عدة في شعره وكان للفكاهة نصيب لا يستهان به من هذا الشعر، وقد وصف الصلح في براعة متناهية قد لا تضاهيها ريشة فنان إذ يقول:

يا صلعة لأبي حفص ممردة***** كأنها ساحتها مرآة فولاذ

ترن تحت الأكف الواقعات بها***** حتى ترى بها أكناف بغداد⁷

وخاتمة لهذا الكلام أن العصر العباسي ازدهرت فيه الفكاهة ازدهارا كبيرا، ويكفي أن الشعراء والكتّاب طرّقوها على حد سواء .

ثانيا: سيرة الجاحظ وحياته⁸:

1- مولده ونشأته: من منا لا يعرف الجاحظ هذه الشخصية التي ملأت الدنيا بمؤلفاتها ، وذاع صيتها وانتشر في عصره، ومازال مشهورا إلى يوم الناس هذا ، إنه أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ، وسمي بالجاحظ لبحوط عينيه وبروزهما، مولود بالبصرة إحدى حواضر العلم في عصره من سنة 159 هجرية الموافق لـ 776 م، ونُسب إلى بني كنانة ترى في بداية حياته فقيرا مُعَدَمًا وفقد والده وهو مازال طفلا، تعلّم في صغره في الكتاتيب مثل أقرانه، ولما شبّ واستوى عودُه تفتّح ذهنه على طلب العلم وأقبل يطالع الكتب بشغف ونهم كيفما حصل عليها، ووقعت بين يديه .

وكان في البصرة يجتمع في مسجدها مجموعة من العلماء والأدباء والنحاة واللغويين عرفوا " بالمسجديين " فأقبل عليهم الجاحظ يجالسهم ويأخذ عنهم الكثير بفضل ما رزق من ذكاء حاد وذاكرة خصبة وقوية، فتلقى الفصاحة والبلاغة وأساليب التعبير شفاها عن خطباء العرب، زيادة على ذلك كان يكتري حوانيت الوراقين ليقرأ ما فيها من كتب. ثم انتقل إلى بغداد حينما كبر وحاز على قدر كبير من العلم والأدب وكان الغرض من ذلك مجالسة كبار العلماء هناك وأخذ العلم عنهم، فأخذ اللغة عن الأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأخذ النحو عن الأخفش ، أما الحكمة عن صالح بن جناح اللخمي ، وعلم الكلام عن النظام إبراهيم بن سيار البلخي، كما تردد على مجالس الأدباء كابن وهب وابن الزيات .

وظل يزاول فنون الأدب والأخبار واللغة والحكمة والكلام، ويعمل الفكر ويحلل، ويتوسع في ذلك حتى استوفت له ثقافة عالية وتنبّه عقله وتعرّض لقضايا خطيرة في الدين، منها ما يعرف بقضية خلق القرآن، حتى كان له مذهب في ذلك وأتباع. ونشير إلى أنه كان يكثر من مطالعة المؤلفات الفكرية والفلسفية، وقد اتصل بكبار الدولة حينذاك بعدما شرع في تأليف الكتب وكان ينسبها في بداية الأمر إلى ابن المقفع وسهل بن هارون حتى تسير وقد أقامه المأمون على ديوان رسائله غير أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام لأنه لم يشأ ولم يقدر على الخضوع لنظام الدواوين، وما يقتضيه سير العمل في هذا المنصب.

2-وفاته : حينما تقدم به السن وخارت قواه أُصيب بفالج نصفي فرجع إلى -

- البصرة مسقط رأسه وموطن صباه فلزم بيته سجيناً للكبر والهرم، فسارع العلماء والأدباء لزيارته سواء من البصرة بلده، أو بغداد عاصمة الخلافة حينذاك ومن أمصار أخرى، وممن زاره الميرد مؤلف الكتاب المشهور (الكامل)، وأُصيب زيادة على الفالج بداء النقرس، وتوفي سنة 255هـ/868م بعدما سقطت عليه الكتب يوماً وهو جالس لمطالعتها.

3-مؤلفاته : لقد أُلّف الجاحظ كتباً شملت مختلف المواد والأصناف، منها ما هو في السياسة والاقتصاد ومنها ما هو في الأدب والشعر والعلوم اللسانية والأدبية، وقد بلغت زهاء 280 كتاباً وأشهر هذه الكتب: كتاب " البيان والتبيين" ⁹ يتضمن مختارات من الأدب والآيات القرآنية أو الحديث والشعر والحكمة وما إلى ذلك، وقد مزج فيه بين علوم البلاغة والأدب والتاريخ وللكتاب قيمة تاريخية ذكرها المحققون لكتب الجاحظ، كتاب " الحيوان " ¹⁰ واشتمل على وصف طبائع الحيوانات وعلاقتها بالإنسان.... إلخ وللكتاب أيضاً قيمة علمية وأخرى أدبية. وزيادة على ذلك نجد كتاب " البخلاء " ¹¹ كتاب " الاستطاعة " ورسائل عدة أهمها " رسالة التريب والتدوير " الساخرة التي قدمناها كنموذج لأدب الفكاهة عنده.

ثالثاً:العوامل التي لونت أدبه :

ما من شك أن للجاحظ قدرات فائقة في الكتابة نتيجة للطاقت والمواهب الكامنة في شخصيته، وكان لعدة عوامل الأثر البارز في تلوين أدبه، وإعطائه ميزة خاصة تميز بها عن غيره من كتاب عصره وممن سبقه أو جاء بعده من هذه العوامل نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

1: خلقته واستعداده: إن كتب الأدب نقلت لنا صورة الجاحظ كاملة المعاني والقسمات فيروى أنه كان قصير القامة، بشع المنظر مع جحوظ عينيه، وهو يتحدث بلسانه عن نفسه " ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رأني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفي " ¹²، وليس ذلك من قبيل المبالغة ولا التهويل فكثيراً ما كان أعداؤه ينالون منه في شكله ومظهره ومن كلام بعض أعدائه من المعتزلة:

لو يمسح الشيطان مسخاً ثانياً***** و ما كان إلا دون قبح الجاحظ
رجل ينوب عن الجحيم بنفسه***** وهو الذي في كل طرف لاحظ

و كان الجاحظ دقيق الملاحظة شديد المعارضة، خفيف الروح رائع الدعابة ميال إلى الضحك والإضحاك.

وجاء في بعض الروايات عن الجاحظ قوله " ما أحجلني قط إلا امرأة أخذت بيدي إلى نجار وقالت مثل هذا ومضت، و عجبت وعن قولها فقال أتت إلي وقالت أن اصنع لها صورة تخوف بها أولادها وأتت بك مثالا " ¹³.

2- البيئة: لقد كان للبيئة التي عاشها الجاحظ دور كبير في إثراء شخصيته المرحة المضحكة والممتعة وهي البيئة الأرستقراطية التي تميزت حين ذاك بالترف والنعيم وزيادة على مجالس اللهو والطرب والغناء، التي شددت إليها شرائح عريضة منها الخلفاء فقد كانوا يقضون بعضا من أوقاتهم في هذه المجالس.

3. الوسط المنزلي: كان الجاحظ يسكن مع أسرته في بيت متواضع، فنشأ كغيره من أقرانه، وتشاء الصدف أن يتوفى والده وهو مازال حديث السن، وحينما بلغ سن الطفولة ذهب إلى الكتاب ليتلقى تعليمه الأول هناك، وكان يبيع في صغره الخبز والسمك بالبصرة دون أن يمنعه ذلك من قراءة الكتب وطلب العلم، بل كان مجدا مكدا في طلبه لبلوغ غايته.

4. الحياة الفكرية: لقد كانت البيئة التي عاشها الجاحظ حافلة بشتى ألوان العلوم والمعارف نتيجة التقاء حضارات قديمة بثقافات جديدة والفتوحات الإسلامية، وامتزاج العرب بغيرهم من شعوب الأمصار التي فتحوها، فزيادة على الثقافة العربية الخالصة التي كان أساسها ومصدرها القرآن الكريم وما دار حوله من الدراسات كانت هناك الثقافة اليونانية، والثقافة الشرقية لا سيما ما وجد عند الفرس والهنود، ونشير إلى أن مسجد البصرة كان ملتقى المجالس العلمية التي يلتقي فيها أئمة الفكر والعلم في ذلك العصر ويذكر ياقوت في معجمه حين عرض لترجمة النضر بن شميل أن عدد

من كان بالبصرة من المحدثين والفقهاء واللغويين والنحويين والأدباء كان يبلغ في عهده زهاء الثلاثة آلاف .

رابعا: من فكاهات الجاحظ :

لقد أحرز الجاحظ على مكانة رفيعة بين أدباء عصره ومن جاء بعده إلى اليوم فكان محل عناية وبحث من طرف الدارسين فهؤلاء يعتبرونه مدرسة قائمة بذاتها، وإن كان جانب الفكاهة عنده لم

يولونه كامل العناية، ولم يغوصوا في أغوار أدبه الفكاهي الذي لم يكتبه هكذا عبثاً وإنما لغاية وأهداف يدرکہا، فكان له رأي ونظرة إلى الضحك يبينها في كتابه البخلاء (ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إن شئت وفي لهو إذا مللت الجد ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك وقبيحاً من المضحك لما قيل للزهرة والخبرة والحلي والقصر المبني كأنه يضحك ضحكاً، وقد قال الله جل ذكره: ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا ﴾¹⁴. فوضع الضحك بجذاء الحياة ووضع البكاء بجذاء الموت، وأنه لا يضيف الله إلى نفس ولا يمن على خلقه بالنقص، وكيف يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ومن مصلحة الطباع كبيراً وهو شيء في أصل الطباع وفي أساس التركيب لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي وقد يطيب به نفسه وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذي هو علة سروره وقوته¹⁵.

إن هذه الآراء التي يديها الجاحظ ليست سطحية، وإنما هي غور في النفس البشرية التي يكتشف طباعها ومكوناتها زيادة على ما تنطوي عليه من رغائب، ومن أجل ذلك عُذَّ الجاحظ في ميدان الفكاهة على رأس مدرسة نفسية، اكتشفها علماء الغرب بعد قرون طويلة، أذكر على سبيل المثال هوبز وماكدوجل وبرغسون.

إن الجاحظ كان بارعاً حقاً في تصوير ونقل ما يريد ممن يصفهم دون أن يفصح عن ذلك فيخفي عن الناس صفات النقائص فيمن تعرَّض إليه في كتاباته وكان ذلك في قالب فكاهي محكم السبك موجز العبارات سهل الألفاظ.

وسأورد بعض الفكاهات وردت على لسان الجاحظ حيث روى عن نفسه قائلاً: رأيت امرأة طويلة القامة، وكنت على طعام فأردت أن أمارحها فقلت لها: انزلي، كلي معنا، فقالت: بل اصعد أنت لترى الدنيا. فهو بذلك أراد أن يسخر من طولها، فسخرت هي من قصره، والقصر أجدر بالسخرية من الطول، وزادت على ذلك أنها طالبت به بأن يصعد ليرى الدنيا وكأنها تقول إن قصرك يحول بينك وبين رؤية ما في العالم فأنت إذاك الأعمى.

وتحكى بعض الروايات عن الجاحظ قوله: (ما أخرجني قط إلا امرأة أخذت بيدي إلى نجار وقالت: مثل هذا ومضت، فعجبت وسألت النجار عن قولها فقال: أتت إلي وقالت: أن أصنع لها صورة تُخَوِّف أولادها وأتت بك مثلاً¹⁶.

خامسا - مضمون رسالة الترييع والتدوير باختصار :

إن الجاحظ كما هو معلوم تناول في كتبه أغلب الفنون التي تناولها الشعراء وتفوق عليهم وأتى بما لم يوفق الشعراء في جميع عصورهم، والقارئ لرسالة " الترييع والتدوير " يدرك ذلك، هذه الرسالة التي يهجو فيها صاحبه "أحمد بن عبد الوهاب " وطول هذه الرسالة يبلغ حوالي مائة وخمسين صفحة وهي هجاء كلها، من الأول إلى الآخر ويقصد فيها الجاحظ الهزل لا الجد وملخص هذه الرسالة مايلي : " أطل الله بقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته لك، قد علمت حفظك الله، إنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة وضخم القامة، وعلى حور العين وجودة القد وعلى طيب الأحداث والصنعة المشكورة، إن هذه الأمور خصائصك التي بها تكلف ومعانيك التي بها تلهج ... وبعد أبقاك الله فأنت في يدك قياس لا ينكسر، وجواب لا ينقطع، ولك حد لا يفل، وغرب لا ينثني وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب، أن تقول وما على أن رأني الناس عريضا وأكون في حكمهم غليظا، وأنا عند الله طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق، و قد علموا أبقاك الله، إن لك مع الطول الباد راكبا طول الظهر جالسا، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل، ومن غرائب ما أعطيت وبديع ما أوتيت، إذ لم نر مقدود أوسع الجفرة غيرك ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك، فأنت المديد، و أنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب فيا شعرا جمع الأعراب، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ما يهملك من أقاويلهم ويتعاضمك من اختلافهم، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وإن من ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولاً. ولكن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك، وقد سلموا لك بالرغم شطرا ومنعوك بالظلم شطرا، فقد حصلت ما سلموا أو أنت على دعواك فيم لم يسلموا، ولعمري إن العيون لتخطي، وإن الحواس لتكذب والحكم القاطع إلا للذهن وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل، إذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس" ¹⁷.

سادسا:دراسة أدبية لبعض فقرات الرسالة :

1 - الأفكار :

أ - سخرية الجاحظ من ثقافة وعلم مهجوه :

لقد استهزل الجاحظ رسالته بالدعاء لأحمد بن الوهاب قائلاً " أطل الله بقاءك ... " وقد توجه الجاحظ بخطابه مباشرة إلى أحمد بن الوهاب والغرض منها السخرية من المهجو والنيل منه بعد أن كان يخاشنه ويتطاول عليه ويكثر من نقده حقداً أو غيره، بالرغم من ضحالة قدره " فقد كان يدعي العلم ويعد أسماء الكتب ولا يفهم من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب "18 وقد أراد الجاحظ أن يلقنه درساً في احترام العلم والعلماء وعدم التطاول عليهم، فاندفع يسخر من ادعائه وجهله، ولم يرتض السب والشتيم خطة بل عمد إلى السخرية منه باصطناع وسائل وطرق شتى منها تعرية مهجوه وكشف زيفه وخوائه بطرح عديد من أسئلة العلم والفكر " التعجيرية " فيخطبه قائلاً " يا قعيد الفلك كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهيولا كيف أصبحت ؟ حدثني كيف رأيت الطوفان، ومتى كان سيل العرم، ومذمات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما جس غراب نوح ؟ وكم لبثتم في السفينة ؟ ومنذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النحف ؟ وأي هذه الأودية أقدم أهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة ...؟ وخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك؟ وعن سمائك عن أفلاطون، وما دار بينك وبين أرسططاليس، وخبرني أين كان إقليدس من فيثاغورس، وأين تلاميذه ؟ ومن صاحب الشطرنج ؟ ويسرف الجاحظ في عرض أسئلته المجتررة على مهجوه وذلك إمعاناً في إحراجه وأظهار جهله ليس في الأدب فحسب بل حتى في الفلسفة والمنطق والطبيعة والحيوان والفلك وتاريخ الأمم، وغير ذلك من أصناف وضروب المعرفة التي ألم بها الجاحظ وتفوق فيها تفوقاً تدل عليها كتبه في الحيوان والبيان والتبيين وقد ختم الجاحظ أسئلته بتوجيه ما يشبه الضربة القاضية إلى خصمه حين خاطبه قائلاً "وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً، فإن أردت أن تعرف حق المسائل وباطلها، وما فيها من خرافة، وما فيها من محال، وما فيها من صحيح وما فيها من فاسد، فألزم نفسك قراءة كتيبي ولزوم بابي"19

ب - سخريته من عيوب مهجوه الخلقية والخلقية :

كما انعكست روح الجاحظ المطبوعة على الدعابة والهزل على طريقتيه في السخرية من خصمه، فالتفت إليه بفضل ما أوتي من ذكاء وبجاسته النافذة إلى عيوبه الخلقية وتصادف أن أحمد بن عبد الوهاب كان مريعا مدورا، مفرط القصر فوجد فيه الجاحظ النموذج " الكاريكاتوري " الجاهز وعمد إلى تبيان تلك العيوب وإظهارها في صورة هزلية تعتمد بالأساس على " المفارقة " أو التضاد

بين مكوناته الخلقية مع الاستعانة بعناصر أخرى كالتضخيم والتلفيق والمبالغة مما يتوسل بها إلى السخرية والإضحاك وقد جاءت صورته كما رسمتها ريشة الجاحظ على هذا النحو. "وقد كان أحمد بن عبد الوهاب مفطر القصر ويدعي أنه مفطر الطول وكان مريعا تحسبه لسعة جفرتة²⁰ واستفاضة خاصرته مدورا وكان جعد الأطراف قصير الأصابع وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه أخص البطن معتدل القامة تام العظم، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي أنه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم والسعة في العلم وكان كبير السن متقدم الميلاد وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد" ومثل هذه الصورة الهزلية تدل على براعة الجاحظ وتمكنه من أدوات فنه الهجائي الساخر، وقد اعتمدت بنية السخرية في ذلك على عنصر "المفارقة" أو "المزوجة" بين الأضداد والمتناقضات متجها إلى التركيز على زوايا جسدية محددة ولكنها لا تلبث أن تنتقل إلى الزوايا المقابلة وذلك إمعانا في السخرية والإضحاك وهكذا تظل عدسة الجاحظ النافذة مصوبة نحو أحمد بن عبد الوهاب متنقلة بين الزوايا حتى تنجح في رسم تلك الصورة الهزلية له، وفيها يبدو مفطر القصر مريعا واسع جوف الصدر كما لو كان مدورا أو طويلا بالعرض فضلا على أنه كان جعد الأطراف قصير الأصابع ولا تتبع المفارقة من هذه العناصر المتناقضة وحدها بل تنبع أيضا من موقف صاحب الصورة ذاته الذي ينكر هذه الحقائق ويدعي غيرها فيبدو وكأنه يحيا في ظل أكذوبة كبرى، وقد تمك الجاحظ وسخر طويلا من عيوب مهجوه الخلقية، مستعينا في ذلك بكل ما أوتي من وسائل السخرية وضروب التهكم لإخراج صورة مهجوه هذا الإخراج الفكه وتندر كما هو معلوم كثيرا بفكرة التضاد بين الطول والعرض ولم يخلو خطابه الساخر من الطرائق التي عرف بها الجاحظ في السخرية كالمحاورة والاحتجاج والسفسطه والاحتيال بالمتناقضات والجمل الدعائية والتورية وغير ذلك، وهي خاصية من خصائص أسلوبه في الكتابة نتيجة لتأثره بما قرأه من كتب يونانية مترجمة إلى العربية والتي عرفت بذلك وهذا متمثل في قوله "فأنت أبقاك الله في يدك قياس لا يكسر وجواب لا ينقطع ولا حد لا يفيل وغرب لا ينثني وهو قياسك الذي إليه تنسب ومذهبك الذي إليه تذهب أن تقول وما علي أن يراني الناس عريضا وأكون في حكمهم غليظا وأنا عند الله تعالى طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق، وقد علموا حفظك الله إن لك مع طول الباد راكبا طول الظهر جالسا ومن بديع ما أوتيت أنا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك

ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك فأنت المديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب فيا شعرا جمع الأعارض، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول بل ما يهكم من أقاويلهم ويتعاضمك من اختلافهم، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم، ي علمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولاً "لقد عمد الجاحظ أن يشوه جسم ابن عبد الوهاب وعقله ويصوره تصويراً مضحكاً ومسلية موظفاً المفارقات والمتناقضات مستعينا كما هو معروف، وظاهر ضروب الجدل والاحتجاج فهو يتسع في فكرة الطول والقصر اتساعاً شديداً فنجد تارة إلى جانب الطول فيحتج له، و يقف تارة إلى جانب القصر ويدلي في كل ذلك بالحجج والبراهين"، وقلت ولولا فضيلة العرض على الطول ما وصف الله عز وجل الجنة بالعرض دون الطول، حيث يقول (و جنة عرضها كعرض السماء والأرض) فهذا برهانك الواضح ". وقد يجاريه ظاهرياً فيحتج له قائلاً "وقد سمعنا بدم الطوال كما سمعنا من يذري على القصار ولم نسمع أحداً ذم مربوعاً ولا أزرى عليك، ولا وقف عنده ولا شك فيه ومن يذمه إلا من ذم الاعتدال ومن يزرى عليه إلا من أزرى على الاقتصاد، ومن ينصب الصواب الظاهر إلا المعاند، ومن يماري في العيان إلا الجاهل بل من يزرى على أحد بتفاهم التركيب"²¹.

ج - التأثير النفسي على مهجوه :

وقصد التأثير على نفسية مهجوه عمد الجاحظ إلى مواجهة أحمد بن عبد الوهاب بحقيقته التي لا مجال للمرء فيها ولا يدخر جهداً في حشد طاقته الإبداعية في تأكيد فكرته وتدعيم حججه، وقد يعمد إلى الشاهد الشعري لدعم هذه الحجج كقوله²²: "و مما ثبت أن ظاهر عرضك مانع من إدراك حقيقة طولك قول أبي دؤاد الإيادي في إبله :

سمنت فاستحش أكرعها **** لا النبي في ولا السنام سنام²³

وقد يعمد إلى التهكم المباشر كقوله²⁴ "لقد كنت في طولك غاية للعالمين وفي عرضك منارة للمضلين قد ظل الجاحظ يتلاعب طويلاً بهذه الصورة الهزلية ويسخر من ادعاء مهجوه ما ليس فيه وما أن فرغ من ذلك حتى عمد إلى وسيلة أخرى من وسائل التهكم تعتمد على رسم صورة مثالية زائفة تضاد صورته الحقيقية، فخلع عليه من صفات الحسن والملاحاة ما يبلغ به الغاية، وتندر بجماله المزعوم في ضرب من " المفارقة"بالغ الطرافة مما يتمثل في قوله²⁵ " وأين الحسن

الخالص، و الجمال الفائق والملح المحض، والحلاوة التي لا تستحيل والتمام الذي لا يجيل إلا فيك أو عندك، أو لك أو معك، لا بل أين الحسن المصمت والجمال المفرد والقدر العجيب والفضل المشهور إلا لك وفيك؟ وهل على ظهرك جميل حسيب أو عالم أدب إلا وظلك أكبر من شخصه، وظنك أكثر من علمه، واسمك أفضل من معناه، وحلمك أثبت من نجواه؟ ولربما رأيت الرجل مسناجيبا، و حلوا مليحا، وعتيقا رشيقا، وفخما نبيلًا، ثم لا يكون موزون الأعضاء، ولا معتدل الأجزاء" ويهتم الجاحظ باستقطاب جوانب الصورة المثالية للجمال المزعوم مقتريا من طريقة الغزلين وفي سياق تصويري يعتمد على تعدد التشبيهات يقول الجاحظ²⁶ "ولو لم يكن الحسن وجهك أنه قد سهل في العيون تسهيلا، وحبب إلى القلوب تحبيبا، وقرب إلى النفوس تقريبا حتى امتزج بالأرواح وخالط الدماء وجرى في العروق وتمشي في العظم بحيث لا يبلغ السمر ولا الوهم....."

كما أن الجاحظ لا يكتفي بعقد المشابهات أو "المشاكلات بل يأخذ كعادته في الاستطراد في عرض الفكرة والإلحاح عليها وتقليب الصورة على وجوهها، وتوليد المعاني وتفريعها على نحو يدesh القارئ محافظا على تلك الروح التهكمية الفكاهة، ويتمثل في قوله "فمن يطمع في عيبك، بل من يطمع في إلا وهي تغني بمدحك ولا فتاة إلا وهي تشكو بتاريخ حبك ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لممرك، ولا عجوز إلا وهي تدعو لك، ولا غيور إلا وقد شقى بك". كما يعمد الجاحظ إلى عقد ضروب من المقاضلات والمقارنات في معرض التباهي بمحاسن ابن عبد الوهاب المزعومة وكأننا إزاء مناظرة حقيقية خارجا بهذا الفن من دائرة الجد إلى الهزل فيقول "ولا ندرى في أي الحالتين أنت أجمل، وفي أي المنزلتين أنت أكمل، إذا فرقناك أو جمعناك، وإذا ذكرنا كلك أم إذا تأملنا بعضك؟ فأما كفك فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع، وهي التي تحسن بحسنها كل ما اتصل بها ويختال بها كل ما صار فيها....." ويعقد الجاحظ مناظرة طريفة بين ابن عبد الوهاب والقمر في حالاته المختلفة بدرا ومحاقا وسرارا منتهيا من ذلك إلى تفضيل خصمه بإعتباره ظاهر التمام، دائم الكمال متبعا لطريقته المعهودة في التهكم والسخرية ويقول: "وقد علمنا أن القمر، وهو الذي يُضربُ به الأمثال، ويشبهه به أهل الجمال، يبدو ذلك ضئيلا ونضوا ويبدو ذلك معوجا شختا²⁷، وأنت أبدا قمر بدر، فخم غمر²⁸، ثم مع ذلك يحترق

السرار²⁹، و يتشائم به في المحاق، ويكون نحسا كما يكون سعدا، ويكون ضرا كما يكون نفعا، ويقرض الكتان، ويشجب الألوان، وأنت دائم اليمين، ظاهر السعادة، ثابت الكمال.....".
 يمثل هذا الاحتجاج الحار يحاول الجاحظ النيل من مهجوه بطريقته الخاصة من خلال إيهامه بالتفرد بالحسن والكمال، فإذا وضعت الصورة الحقيقية في مقابل تلك الصورة المزعومة زادت الحقيقة جلاء ووضوحا، وكلما فرغ الجاحظ من مناظرة التفت إلى أخرى إلحاحا على تأكيد فكرته وإمعانا في التهكم به، وهو في ذلك كله حريص على أن يتوجه إليه بالخطاب مباشرة دون وسيط، وأن تكون صور التناظر مثلا للجددة والطرافة. يقول الجاحظ: "و طباعك جعلت نذاك طباع الحمر، إلا أنك حلال كلك، وجوهرك جوهر الذهب إلا أنك روح كما أنت، وقد حويت خصال الياقوت إلا ما زادك الله"³⁰، وأخذت خصال المشتري³¹ إلا ما فضلك الله به، وجمعت خلال الدر إلا ما خصصت به دونه، فلك في كل شيء صفوته وشرفه ولبابه وبهاؤه، وهل يضير القمر نباح الكلب، وهل يززع النخلة سقوط البعوضة؟".

د - إبراز المكانة الاجتماعية والعلمية لابن عبد الوهاب :

غير أن الموازنات أو المناظرات التهكمية تنتهي بموازنة حقيقية تضع الأمور في نصابها وتنزل ابن عبد الوهاب منزلته الحقيقية، وإذا كانت الموازنات السابقة قد انتهت صالحه تمويهها وتندرا، فإن الموازنة الأخيرة تضعه في حجمه الحقيقي .

يقول الجاحظ " وأنت والله يا أخي - تعلم علم الاضطراب وعلم الاختيار وعلم الإخبار، إني أظهر أمثل حربا وألطف كيدا وأكثر علما، وأوزن حلما وأخف روحا، وأكرم عينا، وأقل غثا، وأبعد غورا وأجمل وجها وأنصح ظرفا وأنت رجل تشدو من العلم، وتنسق من الأخبار وتموه³² نفسك، وتعز من قدرك، وتتهيا بالثياب، وتتنبل بالمرائب وتتحجب بحسن اللقاء، ليس عندك إلا ذاك فلم تراحم البحر بالجدول، والأجسام بالإعراض وما لا يتناهي بالجزء الذي لا يتجزأ " و تلك هي إذا الصورة الحقيقية لابن عبد الوهاب بعيدا عن السخرية أو التضخيم فهو رجل قليل العلم والشأن، وفي شخصيته تمويه وادعاء عيبه وآفته هي مزاحمة العلماء والنظر إليهم بعين الازدراء والحقد والحسد ومثل هؤلاء جدير بأن يوضع في حجمه الحقيقي، ومن حق الجاحظ بأن يحتشد له ويصلبه شواظا من نار سخريته الموجهة.

وختاما لذلك إن رسالة الجاحظ "التربيع والتدوير" أحدثت صدى كبيرا، في المشرق والمغرب وأعجب بها من قرأها، ونسج على منوالها بعض الكتب، دون أن يملك روح الجاحظ الساخرة ولا قدرته على المناظرة والاحتجاج أو توليد المعاني وتفريعها، كما أن الجاحظ في رسالته لم يعمد إلى القذف والشتم وإنما استطاع بلوغ غايته معتمدا على ما أوتي من براعة في التهكم والتفكه والسخرية اللاذعة .

2- الخصائص الفنية للرسالة :

أ. الأسلوب :

من المظاهر الملموسة في الفقرات التي تناولها هي مزاجية الجاحظ بين الخبر والإنشاء، وذلك لوعيه التام بقيمة كل منهما، ولإبراز المعنى وتأكيده، فهو يستخدم الأسلوب الخبري إذا كانت الفكرة التي يعالجها تحتاج إلى تأكيد، ويوظف لذلك الأدوات الكثيرة التي يستعان بها لتأكيد الخبر ومنها إن المشددة ومثال ما ورد في الفقرة " وقد كان أحمد بن عبد الوهاب مفطر القصر ويدعي أنه مفطر الطول... وأنه عتيق الوجه ... يدعي أنه طويل... أنه معتدل الشباب " ³³ ومثال ذلك قد التحقيقية " قد علموا حفظك الله ... وقد سمعنا بدم ... لقد كنت ... " وما إلى ذلك من أمثلة أخرى لا يتسع المجال لذكرها، كما يزاوج بين الأسلوب الخبري والإنشائي بضروبه المختلفة من أمر ونهي ونداء واستفهام وتعجب وغير ذلك ومثال على ما ذكرنا ما ورد في الفقرة، والتي يكثر فيها من الاستفهام، واستهلها بحرف النداء قصد لفت الانتباه ومطلعها " يا قعيد الفلك، كيف أصبحت ؟ ويا قوة الهيولا كيف أمسيت ؟ حدثني كيف رأيت الطوفان، ومتى كان سيل العرم.... " و ذلك لما للأسلوب الإنشائي من قوة في التأثير النفسي العقلي .

ومن ضروب الإنشاء التي وظفها أيضا الأمر ومثال ذلك : "خبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ؟ ... فالزم نفسك قراءة كتيبي... " والغرض من ذلك إحراج وتعجيز أحمد بن عبد الوهاب لأنه لا يستطيع الإجابة عن كل هذه الأسئلة.... الخ.

أما من أمثلة النداء فيقول في فقرة: "فيا شعرا جمع الأعراب، ويا شخصا جمع الاستدارة وغرض منه لفت الانتباه، وأيضا من أبرز الخصائص الفنية التي تميزت به الفقرات المدروسة كذلك السجع الذي وظفه الجاحظ في رسالته وجاء في أواخر الفواصل وعمد إلى التلوين والتنويع لإحداث التأثير المنشود وأذكر على سبيل المثال ما ورد في الفقرة التي تبدأ بما يلي: "فمن يطمع في

عبيك قدرك ... باسمك... بمدحك... بتاريخ حبك... لممرك ... لك يشقى بك³⁴ ومن الطباق أيضا ما وظفه الجاحظ في رسالته نجد "طويل قصير" "حديث - عتيق"

ب . اللغة :

إن دراسة الجاحظ لعلوم اللغة على يد كبار علماء عصره، فضلا عن تلقيه للقرآن الكريم، زيادة على الاستعدادات والقدرات التي تميز بها هيأت له ثقافة عالية جدا، فمن يقرأ أدبه يجد نفسه أمام كاتب عملاق متمرس باللغة، واثق الصلة بما مالك لناصرتها، ويمكن أن ندرك ذلك فيما يلي :

1 . الإطناب والتوسع في رصف الألفاظ وبسط المعاني: وهذا مرتبط بثناء لغته وتمكنه منها ، ومن مظاهر ذلك الميل إلى الترادف والتكرار وتقليب المعنى على وجوه مختلفة . "... وما علي أن يراي الناس عريضا ، وأكون في حكمهم غليظا، وأنا عند الله طويل جميل، وفي الحقيقة مقذود رشيق "

2 . كثرة استخدام المشتقات على اختلاف أنواعها: وهذا من أبرز خصائصه الأسلوبية وأمثلة من ذلك ما جاء في هذه الفقرة التي يصف فيها ابن عبد الوهاب . "... وإنه عتيق الوجه ... أخص البطن ... معتدل القامة ... تام العظم... وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ ... إلخ³⁵ و التي جاءت أغلبها على وزن فعيل كعتيق وطويل وقصير وعلى وزن أفعل أيضا مثل أخصص وأوزان أخرى شتى، ومنها ما هو على وزن مفعول في فقرات أخرى كالمشهور والمشهور ومقدود، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على غزارة ثقافة الجاحظ، ولا يضاهيه فيها من عصره وحتى من جاء بعده وتمكنه من توظيف ذلك أحسن توظيف.

سابعاً: قيمة الرسالة العلمية :

تظهر قيمة الرسالة في سعة الاطلاع للجاحظ ، فقد استقى فيها معلوماته وانتقاهها من تاريخ العالم عموماً وتاريخ العرب بالخصوص، كما استقى من القرآن الكريم والحديث مثلما استقى هذه المعلومات من كتب الفلسفة والعلوم اليونانية وغيرها. وقد ذكر المؤلف في رسالته أهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية كما تعرض لمشكلة المعرفة، (ورأى أن الخطأ كثير ومستول غالب والصواب قليل خاص ومقوم مستخف). وإن الحواس تخطئ وتظل (لعمرى إن العيون لتخطئ وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع ألا للذهن، وما الإستبانة الصحيحة إلا للعقل ...)

كما تعرض في الرسالة لقضية أصل الإنسان وما بينه وبين القرد من تشابه كما عرض قضية الألوان حين قال: ((و خبروني عن ذنب الطاووس ما هو، أتقول بأنه لا حقيقة له وإنما يتلون بقدر المقابلة، أم تقول أن هناك لون بعينه والباقي تخيل)). كما عرض لانتقال الصوت ولظاهرة المد والجزر وأثر القمر في ذلك (فإنما يكون الجزر والمد على مقادير جذبه للماء وإرساله له). وعرض للمرأة والصورة التي تعكسها أهي خيالية أم حقيقية، وللقمر ومحاقه، إلى غير ذلك مما يُحير ويدهش. غير أن هذه القضايا التي يعرضها الجاحظ، لا يقترح لها حلولاً في هذه الرسالة، وإنما يحيل صاحبها إلى كل كتبه التي تعطيه حلاً لكل شيء، وهذا ما يبرهن على سعة علمه، كما أنه يعرضها على سبيل التهكم ومهما يكن من أمر فإن الرسالة حافلة بالمعلومات في شتى فروع العلم مما يجعل الجاحظ يحرز مكانة مرموقة وعالية في حقل العلم والمعرفة في ذلك الزمان .

ثامناً: آراء النقاد حول الفكاهة عند الجاحظ :

لقد أجمعت الآراء التي تناولت موضوع أدب الفكاهة عند الجاحظ على أنه لا يضاهيه أحد في ذلك ولا يجاربه، سواء ممن عاصره أو جاء بعده، وكانت له مدرسة خاصة به، فكانت الفكاهة بألوانها وفنونها رصيد جديد يضاف إلى المعاني ويضفي على الألفاظ جمالاً ويكسبها نشاطاً وخفة، ولذلك تطرق البعض إلى الفكاهة عند الجاحظ لنقدها ومن هذه الآراء التي تناولت هذا الجانب أذكر :

1. أبو الفرج الأصفهاني: الذي ذكر فيما يرويه عن (عبد الله بن جعفر) الوكيل قال: كنت يوماً عند (إبراهيم المدبر) فرأيت بين يديه رقعة يردد النظر إليها فقلت له: ما شأن هذه الرقعة كأنه استعجم عليك شيء منها؟ فقال: هذه رقعة (أبي عثمان الجاحظ) وكلامه يعجبني وأنا أردده على نفسي لشدة إعجابي به (36 .

2. أما (المسعودي) فيقول: (لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من (الجاحظ) وقد كان (أبو الحسن المدائني) كثير الكتب إلا أن (أبو الحسن المدائني) كان يؤدي ما سمع، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة، ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه) (37 .

3. (ثابت بن قرّة) الفيلسوف المعاصر للجاحظ وهو من كبار المؤلفين في لعهدهما أحسد الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم (عمر بن الخطاب) والثاني (الحسن البصري) والثالث (أبو عثمان الجاحظ) خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدرة المتقدمين والمتأخرين إن تكلم حاكي (سحبان) في البلاغة، وإن ناظر ضارع (النظام) في الجدال وإن جد خرج من مسلك (عامر بن عبد قيس) وإن هزل زاد على (مزيد) حبيب القلوب ومرح الأرواح وشيخ الأدب ولسان العرب³⁸.

- وننقل في هذا الباب أن هناك من أراد محاكاة الجاحظ فيما ألف وحاولوا تلخيص ما ألف فنجد عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة 629 هجري الذي لخص كتاب الحيوان في مؤلف وأطلق عليه اسم (اختصار كتاب الحيوان) كما لخص الشاعر المصري المتوفى سنة 658 هجري نفس الكتاب وأطلق عليه اسم (روح الحيوان) أما الدميري فألف في (حياة الحيوان الكبرى) وغير هؤلاء. كما نسجل في باب آراء النقاد رأي المرحوم الأستاذ (أحمد أمين) منوها بما كان للجاحظ من أيدٍ طولى على أدبنا العربي: وعلى الجملة فقد جمع "الجاحظ في عقله كل ثقافة عصره وقل أن يكون له في ذلك نظير.

فقد كان العلماء يبرزون في ناحية من النواحي فاللغوي لا يعرف الفلسفة والفيلسوف لا يعرف الأدب، ولكن هذه الإحاطة قل أن نجدها عند غير (النظام أولاً، والجاحظ من بعده، وقد فاق الجاحظ في ذلك أستاذه ومن أجل هذا كان للجاحظ فضل على الأدب والفلسفة جميعاً ففي الأدب كان فضله أن أغزر معانيه وجعل له موضوعاً بعد أن كاد يكون شكلاً بحثاً فتقرأ رسائله فتجدها ناصعة الأسلوب غزيرة المعنى لها موضع ولها شكل.

هذه رسالة في القيان وهذه رسالة في المعلمين وهذه رسالة في الغناء حتى رسالته في الهجاء وهي رسالة (التربيع والتدوير) استطاع أن يجعل لها موضوعاً علمياً، بل لعلها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أن المسائل العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية كان شغل الناس في عصر الجاحظ³⁹.

وفي موضع آخر وفي تعليق له عن رسالة التربيع والتدوير يقول الدكتور طه حسين: "ويكفي جدا أن ننظر في رسالة (التربيع والتدوير) التي يهجو بها الجاحظ (أحمد بن عبد الوهاب فستجدون هذه الرسالة طويلة تبلغ حوالي خمسين ومئة صفحة، وهي من أولها إلى آخرها هجاء، وهجاء لم يقصد فيه الجاحظ إلى الجد وإنما إلى الهزل. فحدثوني أين الشاعر العربي الذي يستطيع

أن يبلغ في الهجاء بعض ما بلغه الجاحظ في رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتفنن ما بلغه الجاحظ ؟ ونحن نستطيع أن نقرأ هجاء (حرير) وهجاء (الفرزدق) وهجاء (الأخطل) فلن نجد فيه شيء يصح أن يقاس به اللون الذي نجده في كتاب الجاحظ⁴⁰ أما شوقي ضيف فيقول (وكأني بالجاحظ قد أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل مشكلة من مشاكل الفلسفة) إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض، وهو أثناء تناوله يمد تارة ويقصره تارة أخرى، وتارة ثالثة يبعجه في مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه)⁴¹.

إن هذه الآراء المختلفة تصب كلها في خانة الثناء والمدح على الجاحظ في أدبه عموماً وفي فكاهته خصوصاً التي عمد فيها إلى الإضحاك والإمتاع، ليس لهذا السبب فحسب بل إلى غايات يعلمها، ومنها كشف مستور بعض الشخصيات التي تطرق إليها في فكاهاته، والتي تظهر الحسن وتخفي القبح التي انطوت عليه نفوس هؤلاء، ويمكن أن تكون عبرة لأمثالهم من الناس في كل زمان ومكان.

خاتمة :

ما من شك أن رحلتنا مع فكاهة الجاحظ كانت ممتعة وشيقة لما للجاحظ من ذكاء حاد، وقدرات فنية خارقة وكل ذلك جعل سخريته وفكاهته ذات وقع خاص فما هي أهم النتائج والاستنتاجات التي خلصنا إليها في نهاية هذه الدراسة المتواضعة:

- 1- أن الجاحظ تأثر بمحيطه الذي عاش فيه، لذا كانت فكاهته انعكاساً لحياة المجتمع الذي يعيشه بكل سلبياته وإيجابياته .
- 2- أن فكاهاته تميزت بالطول حيناً والقصر حيناً آخر حسب ما يقتضيه الحال.
- 3- أن السخرية عنده تقوم على العقل زيادة على ذلك فهي ذات وقع نفسي مؤثر.
- 4- أن الجاحظ تتبع هؤلاء الذين جعلهم مادة لفكاهاته حتى يكشف أسرارهم ويجعلهم ييؤحون بما تنطوي عليه نفوسهم .
- 5- إن الفكاهة عنده طبيعية تجري في عروقه وتمتزج بنفسه تتولد إما من مصادفة أو شيء طارئ .
- 6- إن سخريته تتميز بطابع التلميح أحياناً وبطابع التصريح أحياناً أخرى.

- 7 - أنه يدخل في سخريته عنصر الاصطناع والافتنان في أساليب المكر والقدرة على الحيلة والخيال .
- 8 - وفي الأخير نجد أن الجاحظ أبدع إبداعا مبهرًا في كل ذلك مما جعل الكثير من الكتاب يحذون حذوه فأنشأوا بذلك مدرسة جاحظية سُمّيت (مدرسة الجاحظ الفكاهية) فيما بعد .
- 9- ضرورة محاكاة الجاحظ في كتاباته في هذا الميدان، من طرف المبدعين الحاليين، والتركيز في هذا الكتابات على الآفات المنتشرة في مجتمعنا من بخل وأنانية وطمع وانتهازية واحتكار في زمن سُمّي زمن الكورونا بحق.
- 10- ضرورة الاهتمام بهذه الطاقات الإبداعية حاضرا في هذا الميدان ونشر أعمالها.

هوامش:

- 1 - الزقاق، الزق وهو وعاء الخمر-المترعات: المملوءات، الجزر: ما ينحر من البهائم.
- 2 - امرؤ القيس، (الديوان)، شرح د/محمد الاسكندراني ونهاد رزوق، دار الكتاب العربي، لبنان، 2004، ص: 130.
- 3 - الزمخشري، أساس البلاغة، دار بيروت للطباعة والنشر د/ط، د/تا ص: 704.
- 4 - ابن عبد ربه، العقد الفريد، طبعة القاهرة، 1949، ج 3، ص: 307.
- 5 - نفسه، ج 6، ص: 379.
- 6 - الأبيشي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج 1، ص: 55.
- 7 - ابن الرومي: الديوان، شرح كامل الكيلاني، ج 3، ص: 438.
- 8 - ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج 7، ص: 67.
- 9 - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون.
- 10 - الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الحلبي، 1945.
- 11 - الجاحظ، البخلاء، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، لبنان، ط 2005.
- 12 - ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: الأستاذ، محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، مصر، ط 1943، ج 3، ص: 343.
- 13 - دائرة المعارف البستاني، ج 6، ص: 348.
- 14 - النجم: 43، 44.
- 15 - الجاحظ، البخلاء، تح: د/محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، لبنان ، ط 2005، ص: 27، 28.

- 16- دائرة معارف البستاني، ج6، ص:348.
- 17- انظر الجاحظ (البيان والتبيين) المطبعة الكاثوليكية، لبنان، د/ط 1959، ص:192.
- 18- الجاحظ، الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون، د/تا، د/طبعة، ج3، ص:83.
- 19- نفسه، ص:142.
- 20- الجعفر: جوف الصدر ، الباد: باطن الفخذ.
- 21- الجاحظ، الرسائل، ص:59.
- 22- رسائل الجاحظ، ص:58.
- 23- استحش: استندق، الني: الشحم.
- 24- رسائل الجاحظ، ص:59.
- 25- نفسه، ص:82، 83.
- 26- نفسه، ص:86، 87.
- 27- الشخت: الدقيق الضئيل.
- 28- الغمر: الواسع.
- 29- السرار: آخر ليلة من الشهر.
- 30- رسائل الجاحظ: ص:92، 93.
- 31- يُقْتَرَن المشتري بالخط السعيد والخير الكثير ويسميه المنجمون السعد الأكبر.
- 32- التمويه: الطلاء بالذهب أو الفضة.
- 33- رسائل الجاحظ: ص:142.
- 34- رسائل الجاحظ، ص:86، 87.
- 35- نفسه، ص:83.
- 36- ياقوت الحموي، معجم الأدياء، مطبعة المأمون، ج16، ص:92.
- 37- المسعودي، مروج الذهب، تح: محمد محي الدين، ج4، ص:98.
- 38- ياقوت الحموي، معجم الأدياء، مطبعة المأمون، ج16، ص:97.
- 39- أحمد أمين، ضحى الإسلام، مكتبة النهضة، ج3، ص:128، 129.
- 40- طه حسين، حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ص:56.
- 41- حنا فاحوري، تاريخ الأدب العربي ، لبنان، 1980، ص:71.

المصادر والمراجع:

1- ابن سيده: المخصص، بيروت، لبنان، دون طبعة، 1965.

2- ابن عبد ربه: العقد الفريد، طبعة القاهرة، 1949.

- 3- ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق محمد محي الدين ع/الحميد، مكتبة النهضة.
- 4- ابن الرومي: الديوان، تحقيق كامل الكيلاني.
- 5- ابن منظور: لسان العرب، طبعة بيروت، 1956.
- 6- امرؤ القيس: الديوان، شرح د/محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د/طبعة، 2004.
- 7- أبو الفرج الأصفهاني: طبعة التقدم ودار الكتب.
- 8- أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، ط: 29، 1929.
- 9- أبو نواس: الديوان، شرح محمود واصف.
- 10- الأبيشي: المستظرف في كل فن مستظرف، ط / المشهد الحسيني.
- 11- الجاحظ: البخلاء، ت / محمد الإسكندراني، بيروت، ط. 2005.
- 12- الجاحظ: الحيوان، تحقيق: ع السلام هارون، ط / 1945.
- 13- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: ع السلام هارون، ط / 1945.
- 14- المسعودي: مروج الذهب، طبعة السعادة، 1965.
- 15- الحصري: جمع الجواهر، د/تاريخ، ط / 1 القاهرة.
- 16- أحمد محمد الحوفي: الفكاهة في الأدب، طبعة القاهرة، 2001.
- 17- الأصبهاني: محاضرات الأدباء، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.
- 18- الزمخشري: أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط / 2000.
- 19- حنا فاحوري: تاريخ الأدب، طبعة بيروت لبنان، دون تاريخ.
- 20- طه حسين: من حديث الشعر النثر، دار المعارف مصر، 1961.
- 21- عبد الحميد خطاب: الضحك بين الدلالة السيكلوجية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر.
- 22- فتحي محمد أبو عيسى: الفكاهة في الأدب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 23- فوزي عيسى: الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، دار المعرفة الجامعية مصر.